جودُ معْن !!

١

عرف أهل العراقين ـ أيام الخليفة المهدى ـ معن بن زائدة ، عاملا سخى اليد ، وافر الجود ، عظيم العطاء ، لا يبالى إذا أعطى فقراً ولا حاجة ، فهو كبير الأمل فى الله ، الذى يهب لعباده عظائم النعم ، وجلائل الآلاء ..

كان ممن لا يردّ سائلا ، ولا ينهر محتاجاً ، و يعتقد أن فى هذا رضا الله ، الذى يعطى العبد بقدر احتياجه ، فإذا يسر على العباد ، و بسط يده بالجود والفضل ، رزقه من حيث لا يحتسب ، و إن قبض يده و بخل على عباد الله ، قتر الله عليه ، وجعل رزقه كفافا ..

وتسامع الشعراء بهذا ، فجاءوا إليه من كل حدب وصوب ، يمدحونه فيجزل لهم العطاء ، و يقفون ببابه ، فينالهم منه الخير الوفير ، والفضل العميم ، فتنشرح منهم القلوب والصدور ، وتنطلق الألسنة بالمديح والثناء المستطاب ، وما أعظم الشاعر حين تثور عاطفته ، وتهتز نفسه وتنفعل ، ويجد مجالا للقول ، ودافعاً إليه .. !!

غير أن أحد الشعراء أقام مدة بباب معن ، وأراد الدخول ، فلم يتهيأ له ذلك ، على الرغم من كثرة محاولاته ، فراح يحتال للأمر ، و يتمحل له ، وما زال يقلبه على وجوهه الممكنة ، حتى اهتدى إلى حيلة جميلة ، رأى فيها

حلا لمشكلته ، ومخلصا من كربه ، وفرجا لضيقه الذى يعانيه ، وهمه الذى يكابده ، فأسرع إلى أحد خدم معن ، وقال له :

— إذا دخل الأمير البستان فعرفنى . .

وفكر الخادم قليلا ، فربما يكون فى هذا مخالفة لايرضى عنها سيده ويعنفه بسببها ، وقد يناله من جراء ذلك بعض الضرر ، ولكنه علم أن الأمر لاخطر فيه ولا ضرر ، وأن الأمر لا يخرج عن مجرد مساعدة لهذا الشاعر ، الذى قد يكون فى حاجة إلى معونة معن ومساعدته . . وأدركته الشفقة والرحمة على هذا الشاعر ، فقال فى صدق و إخلاص :

— سمعاً وطاعة ...

ومضى الشاعر فرحا بهذا الوعد ، معتقدا أنه سينال أمنيته ، و يحصل على طلبته ، وأن الله و إن لم يهيئ له الدخول على معن ، فلقد سهل له مهمته ، وعما قريب سيتصل به ، و يجد طريقه إليه . .!

٢

وخرج معن إلى البستان ، وما كاد يدخله حتى أسرع الخادم إلى الشاعر ، وأخبره بذلك ، وعاد كما كان ، وقد شعر بأنه أراح ضميره بوفائه بوعده ، الذى قد يستفيد منه ذلك الرجل . .

ووقف الشاعر خارج البستان ، وتطلع يمنة و يسرة ، ودار حوله يختبر حائطه ، و يتفقد جوانبه ، وأخيراً هدأت نفسه ، واطمأن خاطره ؛ لأنه وجد الثغرة التى تدخل منها قناة الماء . . !!

أسرع إلى خشبة صغيرة ، وكتب عليها بيتاً من الشعر ؛ لم يتأنق فيه ، ولم يتكلف ! وإنما ضمنه حاله وما يريد ؛ ثم ألقى بالخشبة فى قناة الماء ، لتحمل إلى معن رسالته ، وتطلعه على مكنون أمره ، وخفى سره ، الذى لم يقله لأحد ، ولم يخبر به إنسانا ..

يالله ! لقد وقف الشاعر بعـــد ما ألقى هذه الرسالة العجيبة حائراً ، مشتت الفكر ، مبلبل الخاطر ، مضطرب الأعصاب ؛ لا يستقر على حال من القلق والاضطراب .. لقد ترك هذه الخشبة فى يد القدر ، يسيرها كما يريد ، ويتجه بها إلى حيث يشاء ، فمن يدرى ، أتقع فى يد معن ، ويعلم ما فيها ، أم أنه لن يراها ، وبذلك يبقى هو خارج البستان لايعلم به مخلوق ؟ ؟ إنه دون ريب قاصر الحيلة ؛ فربما لا يرى معن هذه الخشبة على الإطلاق ؛ لأنه قد يكون بعيداً عن قناة الماء ، بأن يكون فى بحيرة من البحيرات الكثيرة المتناثرة فى البستان هنا وهناك ، أو يكون فى خميلة تحجب عنه القناة ، أو ربما يراها ، ولاتلفت نظره ، فما قيمة خشبة ملقاة فى الماء ! .

وحزنت نفسه عندما وصل إلى هذا الحد ، وعلم أنه محروم من خير كثير ، وأنه قد حيل بينه وبين أكرم رجل فى عصره ، وهكذا أراد الله ، ولاراد لما أراد .. فعليه أن يقنع بما هو فيه ، ويعود من حيث أتى ، وينتظر صابراً حتى تواتيه الفرصة فينتهزها .. ! !

ولكن الأمل داعبه مرة أخرى ، فطرد هذا اليأس القاتل ، والقنوط الأليم ، وقال فى نفسه : إن منظر الماء بين الأشجار والأزهار ، والخضرة اليانعة والورود الفيح ؛ لهو أجمل منظر يتمتع به إنسان إذا قصد النزهة ،

دخل بستاناً .. فكيف لا يقصد معن إلى القناة يتمتع بمنظر مائها الجميل ، يستمع إلى موسيقاه العذبة ، وخريره الأخاذ بمجامع القلوب ؟ كيف يذهب إلى القناة ليرى الماء وهو يتلوى فيها ، وينحدر إليها ، ويجرى جريان الثعلبان الماكر يحاول الاختفاء من صائد حاذق ، أو التواء الأرقم المؤلف يمعن فى الفرار ، خوفا من مطارد جبار .. ؟ !

كيف لا يذهب معن إلى القناة فيرى تكسر صفحة الماء ، وما ينعكس عليها من أضواء ، لا تلبث إذا هدأت واستقامت ، أن تضطرب على فور وتتكسر فى جمال يسبى العقول ، ويحيّر الألباب ! ؟ .

لا قيمة للبساتين فى نفس المتفرج ، الذى يطلب النزهة والمتعة ، بغير منابع الماء ومجاريه ، ونافوراته وأحواضه ؛ فلا بد إذن من ذهاب معن إلى القناة ، وتطلعه إليها ، ومعنى ذلك أنه لابد وأن يرى الخشبة ، أو بمعنى أدق رقعتى التى ضمنتها ما أريد ، وأودعتها السر الذى لم أقله لأحد ..!

ومضى الشاعر يعلل نفسه بهـذه الأمانى الخوالب ، وكان أخشى ما يخشاه أن تقع فى يد البستانى أو الخادم ، فيقذف بها إلى بعيد ، دون أن يعلم ما بها ، وماذا يهمه إذا علم ما بها ؟ إنه لو قذف بها بعيداً لقضى على آماله ، وكأنما يقذف بقلبه دون رحمة ولا شفقة ، ويعصف بأمانيه الحسان ، كما يعصف الخريف بأوراق الأشجار ، وسرعان ما تذروها الرياح .. !!

وتخاذلت قواه ، وتزايلت أعضاؤه ، ولم يتماسك ، فأسرع إلى ظل شجرة بجوار البستان وجلس فى هدوء وصمت ، فأحس بالراحة الغامرة ؛ لأنه نهر نفسه عن الاندفاع مع فكره إلى هذه الأودية السحيقة ، والطرق

الملتوية ، وسلم أمره لله ، الذى بيده مقاليد السموات والأرض ، ويكفيه أنه سعى وحاول ، أما النجاح والحصول على ما يريد ، فليس من شأنه ، ولا يدخل فى وسعه وطاقته ، وإنما هو بيد الله . .

وشخص ببصره إلى السماء ، ودعا الله أن ينظر إليه ، ولا يرجعه خائبا بعد ما طال انتظاره ، وامتد أمله ، لينال من عطاء معن ، ما يخفف همه ، ويزيل غمه ، ويفرج كربه . . !!

٣

وصدق الشاعر فى تفاؤله ، فإن أحب شىء إلى نفس معن ، هو ذلك الوقت الذى يقضيه فى البستان ؛ يرى هذه الشجرة وتلك الثمرة ، ويتمتع بأريج الزهر ، ويانع الورد .. ثم هو لا يكاد يبعد عن قناة الماء ليجمع إلى منظر الورود والزهور ، والأشجار والثمار ، منظر الماء الرقراق المتدفق حينا ، والهادئ حينا آخر ، ينساب إلى أصول الأشجار ، فى حنان ودعة ، فيرويها ويحييها ، وكأنه الأب الرحيم يحمل إلى أبنائه وأولاده الرزق الحلال دون أن ينقل أحدهم قدما ، أو يلاقى جهداً فى سبيل السعى والحصول على هذا الرزق ، الذى يكتنفه غالباً كثير من الصعوبات ، وتحيط به المشقات الجسام ، والخطوب العظام . . !!

ورأى الخشبة تضطرب فى القناة ، ويحملها الماء فى قوة وعزم ، لا ينوء كاهله بحملها ، ولا يكاد يختفى منها شىء .. ولذّ له أن يأخذ هذه الخشبة ، وينعم فيها النظر ، ويقلبها فى يده ، وما كاد يفعل حتى رأى عليها كتابة ، فقرأها بصوت خفيض :

أيا جود معن ، ناج معناً بحاجتى فمالى إلى معن سواك شفيع

وأعاد القراءة بصوت مرتفع قليلاً ، حتى حفظ البيت ، ولا زالت الخشبة بيده ، يقبض عليها فى قوة و إعجاب ، وكأنها تحمل شهادة قيّمة ، يحرص عليها ، ثم قال لمن حوله :

— من صاحب هذه ؟

فأجاب الخادم الذى أخبر الشاعر بدخول معن إلى البستان :

— فى الخارج يامولاى . .

— علىّ به . . !

و بقى معن بن زائدة يفكر فى هذا الشاعر ، الذى اضطرته الحاجة الملحة ، والضرورة القاهرة ؛ لأن يعمل ما عمل ، وأن يتمحّل للأمر إلى هذا الحد ، حتى تفتقت حيلته عن هذا الوضع ، الذى كله التوكل على الله والاعتماد عليه ؛ إذ أن الصدفة المحضة هى التى ساقت إليه هـذه الخشبة ، ولولا هذه الصدفة لما وقعت فى يده . . إن الرجل لابد أن يكون فى ضيق شديد ، وهمّ قاتل ، فلا بد أن نفرج عنه كربته ، ونكشف مايعانيه ؛ لعل الله القادر يفرج من كرباتنا يوم القيامة ، مايثقل الكاهل ، و يضنى النفس ، ويرهق الروح . . ! !

ترى من لهؤلاء الشعراء والأدباء ، إذا لم يكن لهم من صدور الخلفاء والولاة والعمال رحابة وعطف ؟ ولهم من كنفهم ملجأ وملاذ ؟ ومن كرمهم ثقة ورحمة ؟ ولهم من هباتهم وأموالهم عون على الدهر ، وحصن يقيهم عوادى الزمن ، وحادثات الأيام ؟ !

من هؤلاء الشعراء والأدباء غير رحاب الخلفاء والأمراء والولاة ؟ إنهم درع الخلافة الواقية ، وهم للخليفة أو الأمير ، سيف باتر يدفع عنه الأذى ، ويبعد الخطر ، ويبتر الشر . .

وما أجمل عالمهم! إنهم يعيشون فى جوٍ كله الأمانى والأحـــلام ، لايكادون ينظرون إلى المادية الآثمة ؛ التى تسيطر على الناس وتضنيهم ، وتستعبدهم على الدوام ، فإذا لم توفر لهم الحياة الروحية الجميلة ، اندفعوا مع الناس فى تيارهم الجارف ، وضاع على الأمة خير كثير . .

٤

واهتز الشاعر طربا حينما دعاه الخادم نزولا على رغبة مولاه معن ، وأيقن أن الرسالة وصلت إلى يده ، وأنه عما قريب سيبلغ ما يتمنى ، وينال ما يريد من صلات وفيرة ، وعطاء جزيل ..!

وصدق حدسه ؛ إذ قال له معن :

— ماذا قلت ؟

فأنشد البيت الذى كتبه ، فاقتنع معن ، وأيقن أنه هو صاحب الخشبة التى عثر عليها فى قناة الماء ؛ ثم أمر له بعشر بدر . . .!

وذهل الشاعر عندماسمع هذا القدر . . عشر بدر . . أى مائة ألف درهم .. إنه الفرج القريب ، والخير العميم ، والعطاء الجزيل ، الذى لم يكن يحلم به فى يوم من الأيام .. إنه سمع بجود معن حقا، ولـكنه لم يكن يظن أن يبلغ به الجود إلى هذا الحد ، وعلى هذه الصورة .. إنه لسعيد كل السعادة

بهذه العطية ، وإنه لا يطلب من الأيام أكثر من هذا ، فلقد أصبح بهذا المبلغ من الأغنياء الموسرين ، فما أجودك يامعن ! وأعظم كرمك ونداك !

وحمل الشاعر الهبة ، ومضى حثيثا ، يكاد يطير فرحاً وسروراً ، فعن قريب يشعر أهله باليسر بعد العسر ، والفرج بعد الشدة والضيق ، الذى أكل أبدانهم وجسومهم .!

ووضع معن الخشبة تحت بساطه ، معتزاً بها ، شفيقاً بصاحبها . . لم يقذف بها بعيداً ، وبخاصة بعـــد ما أنعم على صاحبها ، وأعطاه مجزلا له العطية . . لم يفعل بها ذلك ، فلها فى نفسه ذكرى يجب أن يذكرها بين الفينة والفينة ، وبين الحين والحين . . إن الشعراء قبله لم يصلوا إلى هذا المعنى الجميل ، ولم يوفقوا إلى مثله ؛ على كثرة ما قال القائلون ، وأنشأ الشعراء والأدباء . . فلم إذن لايعتز بهذه الخشبة هذا الاعتزاز ؟

لقد عرف هذا الشاعر كيف يأسره ، ويملك عليه لبه . . لقد اتخذ شفيعه إليه جوده وكرمه ، ولم يذكر له حاجته كما يذكر الشعراء ، ولم يقل له أريد أو أطمع أو أتمنى . . وإنما جعل الجود . . جود معن هو الذى يناجيه ، ويذكر له حاجة الشاعر وما يريد . . !!

يالله ! إنها لفتة جميلة ، تستحق أن يحتفظ بها معن ، وأن يضعها فى موضع أمين ، ويجعلها فى متناول يده ؛ يراها كلما أراد ذلك ، لتذكره دائما بهذه اللفتة الجميلة ، فيجد أثر ذلك فى نفسه ، هزة قوية تملك عليه عواطفه وتخلب لبه ، وتقنعه بأنه جيد يناجيه جوده بحاجات الناس ، ومطالب الأدباء والشعراء . .

وما كاد يذكر الجود حتى استصغر نفسه ، وعلم أنه ليس هناك .. ليس من الأجاويد ؛ الذين طار لهم فى الناس ذكر ، وذاعت لهم شهرة ، وعرف لهم قدر مرموق ، ومنزل كبير .. بيد أنه حمد الله سبحانه ، أن بلغ هذه المنزلة ، وخلص من رذيلة الشح ، ونجا من سلطان نفسه ، وسلطان شيطانه ، وطالما جاهدهما جهاد الأبطال ؛ فلقد كانا يأمرانه دائما بالبخل والتقتير .. ويدعو الله أن يسبغ عليه نعمته ، فتنبسط يده بالعطاء أكثر من هذا ، وتجود نفسه بالبذل أعظم من هذا الجود ..!

٥

وفى اليوم التالى لذّ لمعن أن يقرأ الخشبة ، فأخرجها من تحت بساطه ، وقرأ البيت المكتوب فيها ، فذكر الرجل ، ووجد من نفسه ميلا شديداً لإكرامه مرة أخرى ، فقال لمن حوله :

— علىّ به ..

وانتشر الأعوان هنا وهناك ، وسرعان ما أتوا بالشاعر ، صاحب الرقعة الخشبية ، وهو مضطرب الفكر .. لأنه أخذ ما يكفيه ، وفوق ما كان يريد ، فما الداعى لطلبه الآن .. فى اليوم التالى مباشرة .. هذا كثير ، ولابد أن يكون فى الأمر شىء .!؟

وما كاد يدخل على معن ، حتى عرف الحقيقة ... عرف أن الأمير هزّه الكرم والجود ثانية ، فأمر له بمبلغ مماثل لما أعطاه له بالأمس . !

يالله عشر بدر أخرى .. أى مائة ألف درهم !!

ماهذا ؟! إن الفرَج إذا جاء ، فإنما يجيء دفعةواحدة ، حتى يحار الإنسان فى تصريف هذا الفيض العميم ، والخير الوفير ..

وشكر الرجل لمعن جوده وكرمه ، ومضى على ألا يرجع مرة أخرى مهما كلفه الأمر . . إن خير طريق لهذا هو الاختفاء التام ، ولا شيء غير هذا ، وكان له ما أراد . .

وفى اليوم الثالث بدا لمعن أن يقـــرأ الخشبة ، فأخرجها من تحت البساط وقرأها ، فهزّه مافيها مرة ثالثة ، وقال لمن حوله :

— علىّ به . .

ولـكن أنصار الأمير هذه المرة ، أضناهم السعى ، وكدَّهم البحث ، وأعياهم التنقيب ، ولم يعثروا للرجل على أثر .. لقد هرب الرجل من الجود والـكرم ، وآثر الاحتفاظ بما نال ، وخشى أن يضره هذا الجود الـكثير ، ومن يدرى فربما يرجع الأمير فيما وهب .. !!

وتألم معن بن زائدة ، حينما علم أن أتباعه لم يجدوا الرجل ، ولم يعثروا له على أثر ، ووجد فى نفسه نوعا من الـكبت والضيق ؛ لأنه كان يريد الإعطاء فمنع منه ، وكان يريد أن يهب ويجود ، فلم يستطع هبة ولا جودا فتأوه فى بطء وقال :

— حق علىّ أن أعطيه ، حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار ..!!

وتلاقت الأنظارحوله .. أنظار أتباعه وأنصاره .. وكلها نظرات متسائلة حيرى ، ثم ارتدت هذه النظرات واستقرت فى هدوء ، فلقد كفى الله المؤمنين القتال ، ولن يرى معن هذا الرجل بعد الآن .. !!